

جامعة الجيلالي بونعامة – خميس مليانة.
كلية العلوم الاجتماعية والانسانية.
قسم التاريخ .
محاضرات تاريخ الجزائر الثقافي الحديث والمعاصر.
سنة ثانية ليسانس تاريخ.
2023/2022.
الأستاذ عبد القادر فلوح.

مقدمة:

يعد موضوع تاريخ الجزائر الثقافي خلال الفترة الحديثة والمعاصرة ،من المواضيع الهامة في تاريخ الجزائر العام. لإرتباطه بتكوين المجتمع الجزائري الذي يبقى باستمرار متمسكا بمقوماته التاريخية والدينية.

ومن هنا تكمن أهمية البحث في الاوضاع الثقافية للجزائر في فترة التواجد العثماني بالجزائر. وكثيرة تلك الابحاث التاريخية التي استطاعت رغم صعوبة

الوصول للمصادر الاولى، أن تؤكد على أن المجتمع الجزائري يمتلك جميع المقومات الثقافية التي تجعله رائدا في منطقة المغرب الاسلامي، على الرغم من ان بعض الابحاث الأخرى تنفي ذلك. وهو ما نحاول من خلال مجموعة من المحاضرات المقدمة التأكيد على أفراد المجتمع الجزائري بخاصية ثقافية تقوم على أصالة انتاجه الثقافي وتنوعه وعلى امتلاكه مجموعة من المؤسسات الثقافية لعبت دورا هاما في المحافظة على عادات وتقاليد على المجتمع في المجال الثقافي. وتقوم عناصر المادة على المحاور التالية :

1-تراث القرن 15م

2-المؤسسات الثقافية:

أ- المساجد.

ب-الزوايا.

ج - الاوقاف.

1- تراث القرن 9/15م.

كانت الحركة الثقافية والعلمية في اقليم المغرب الاسلامي الاوسط (الجزائر)، تتمحور حول بعض الحواضر الثقافية الرئيسية مثل مدينة تلمسان وبجاية وقسنطينة ومدن أخرى مثل مدينة مازونة في الغرب الجزائري وعنابة ومدينة الجزائر. فقد انتشرت فيها مراكز للتعليم والاشعاع الثقافي، واشتهرت فيها أسر علمية مثل أسرة المقرئ وابن مرزوق وابن باديس والفكون والغبريني.

أ-المؤثرات في الحياة الثقافية :

*- تأثرت الحياة الفكرية العامة في مدن اقليم المغرب الاوسط الاسلامي بالأوضاع السياسية السائدة في بلاد المغرب الاسلامي عامة. حيث ساد التطاحن والحروب بين الدويلات الثلاث الحفصية والزيانية والمرينية، وتأثرت الدولة الزيانية في الوسط أكثر من غيرها بهذا الوضع، فهاجر طلاب العلم والعلماء مدن الجزائر الى بلاد المشرق الاسلامي والى بلاد المغرب الاسلامي الأخرى.

*-التأثير الايجابي لهجرة الاندلسيين الى اقليم المغرب الاوسط وحملهم مختلف الفنون والعلوم الادبية والعلمية معهم، كما حملوا عددا كبيرا من امهات الكتب الفقهية والادبية والعلمية المميزة، التي كانت تشتهر بها مكتبات الاندلس.

*-بروز ظاهرة التصوف والمتصوفة وانتشار الزوايا في اقليم المغرب الاوسط، ادى الى ظهور فئة من العلماء والطلبة والدعاة الى مقاومة الاحتلال الاسباني بالمنطقة، حيث تبلور ذلك في شعرهم وكتاباتهم ونثرهم الموجهة لطلبة العلم.

*- كانت كل مدينة بهذا الاقليم تعمل مستقلة وبحرية عن المدن الاخرى، في مجال التعليم والثقافة نظرا لانعدام الرابط السياسي بينهم، بسبب ضعف السلطة المركزية في مدينة تلمسان. فكان لكل مدينة اسرها العلمية التي توارثت العلم ومدارسها مثل مدرسة بجاية ومارونة وقسنطينة وبسكرة والجزائر وعنابة.

ب-العلم والامراء:

كانت علاقة العلماء بالامراء مرتبطة بالمصالح البينية، حيث اتجه كل طرف الى تحقيق مصالحه.حتى اصبح الامراء يستخدمون العلماء لخدمة مصالحهم في البقاء في السلطة، لقد كانت سيمة ذلك العصر، نظرا لحالة الضعف السياسي الذي انتشر في منطقة المغرب الاوسط.

وهو ما شجع فئة من العلماء لخدمة مصالحهم، وعلى العكس من ذلك برز بعض من العلماء في معارضتهم للامراء والسلاطين مثل أحمد بن يحيى الونشريسي مولدا، التلمساني منشأ وأصلا، والفاسي منزلا ومدفنا، من علماء الجزائر الأعلام وفقهائها البارزين. واسمه الكامل أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي أو كما عرف نفسه في عدة وثائق له. وعرفه معاصروه بأنه أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد بن علي الونشريسي، وسمي بالونشريسي نسبة إلى موطنه الأصلي بجبال الونشريس. وقد ادى ذلك الى هجرته نحو مدينة فاس فخسرت الجزائر عالما وفقها كبيرا .

ج- اللغة والادب العربي:

- كانت علوم اللغة العربية والشعر والنثر اساس التعليم والثقافة العربية والاسلامية في بلاد المغرب الاسلامي الاوسط. ولاتجد عالما أو فقيها إلا وله كتابات واجتهادات في مجال علوم اللغة العربية وادابها، غير ان ظاهرة التصوف في الشعر والنثر طغت على الحياة الثقافية بسبب الحالة السياسية المضطربة.

- وهناك العديد من المؤلفات يمكن أن نوجزها في مايلي:

- قصيدة ابراهيم التازي المعروفة بالمرادية.
- المنظومة الشعرية لاحمد بن عبد الله الجزائري.
- منظومة المراصد لابن زكري.
- قصيدة عبد الرحمن بن علي بن عبد الله الغبريني البجائي.

د- علم الكلام والفلسفة:

-العلوم والمنطق: كان الانتاج العلمي لعلوم الرياضيات (الحساب والجبر) والعلوم الطبية ضعيفا وقليلًا مقارنة بالعلوم الشرعية والادبية ، غير ان هناك أسماء برزت مثل ابن فشوش في الطب، وابن القنفذ في علم الفلك وابراهيم بن احمد الثغري التلمساني في الطب واحمد بن يونس في الحساب.

هـ- التفسير وعلوم الفقه:

برع علماء الفقه في المغرب الاسلامي بهذه العلوم ولا نجد مدينة جزائرية تخلو من عالم في هذه العلوم ، وكان احمد الوشريسي وعبد الرحمن الثعالبي ومحمد بن عبد الكريم المغيلي والتنسي اكثر النبغاء في هذه العلوم.

2-المؤسسات الثقافية في الجزائر.

انتشرت عديد المؤسسات الثقافية في مدن الجزائر خلال الفترة العثمانية، وكانت لها دورا هاما في نشر التعليم في المدن والارياف.

أ- المساجد:

تعتبر من أهم المؤسسات التعليمية، وهي مظهر من مظاهر المنشآت العمرانية التي تزخر بها مدن وبوادي الجزائر. وقد ذكر فونتير دو بارادي venture de paradis في كتابه ان مدينة الجزائر تتوفر على 12 مسجداً كبيراً وأخرى صغيرة، يتلو فيها القرآن وتعليم مختلف العلوم الفقهية من

خلال الدروس التي يقدمها فقهاء ومعلمون وأساتذة للطلبة من مختلف الأعمار بالمدن الجزائرية.

ومن أهم مساجد المدن الجزائرية الكبرى نذكر جامع كتشاوة 1612م ومسجد علي خوجة، وجامع علي بتشين والجامع الجديد (1660م) بمدينة الجزائر بدار السلطان، أما بمدينة قسنطينة فقد عرفت هي الأخرى تشييد عدد من المساجد ومن أهمها الجامع الكبير بمدينة قسنطينة وجامع سيدي الكتاني (1776م) والجامع الاخضر وجامع حسن باي، كما كانت مدينة تلمسان منارة علمية بانتشار المساجد ذات البناء العمراني الاسلامي المميز ومن أهمها الجامع الاعظم (1080م) وأعيد بناءه بتاريخ 1135م)، ومسجد سيدي ابي حسن التنسي ومسجد سيدي الحلوي الشوذي، وعرفت هي الاخرى مدينة عنابة اجمل المساجد مثل مسجد صالح باي (1792م).

ومما سبق، فإن الاهتمام ببناء المساجد والعناية بها وكثافتها وصيانتها خلال العهد العثماني كان كبيراً والمشاركة في بنائها، كانت من الحكام ومن عامة الناس على السواء. وكان هذا الاهتمام من دوافع دينية خدمة للمذهب الملكي والمذهب الحنفي وارتباط المجتمع الجزائري المسلم المتعدد التركيب الاجتماعية بدينه الاسلام. وانتقل دور المساجد من دور العبادة كالصلاة الى الدور التعليمي من خلال تحفيظ القرآن وتدرسه على المراحل التعليمية المختلفة، وبذلك حافظ المسجد على اصالته كالمجتمع الجزائري المسلم على الرغم من الاسلوب التقليدي في عملية التعليم. ومن هنا كان الدور الثقافي للمساجد مميّزا من خلال امتزاج الدور الديني بالطابع الثقافي، فقد انتشرت فيها المكتبات الغنية بالكتب ذات القيمة العلمية الكبيرة، وكانت المكتبات ملحقة بالمساجد ويقول العلامة التماروتي المغربي في هذا الصدد: (...والكتب فيها - يقصد مدينة الجزائر - أوجد من غيرها من بلاد افريقيا وتوجد بها كتب الاندلس كثيراً). ويقول المرحوم الاستاذ ابو القاسم سعد الله (... أن الباحثين الفرنسيين الذين شهدوا وجمعوا المخطوطات من مكتبات المدن الجزائرية غداة الاحتلال، انهم كانوا مندهشين من كثرة الكتب التي وجدوها ومن تنوعها ومن جمالها ومن العناية بها...).

وعليه، فقد تميزت المساجد بتعدد الخدمات والادوار ، فنجدها مكانا للعبادة والتعليم وكانت مكانا للمطالعة، كونها تحتوي على خزائن من الكتب النفيسة ذات

قيمة علمية كبيرة. كما كانت المساجد مكانا لتدريس مختلف العلوم الشرعية تنافس من خلالها اكبر المدارس في المغرب والمشرق.

ب- الزوايا:

ومن أبرز مميزات العهد العثماني في الجزائر كثرة الزوايا، حيث مثلت مقر للعبادة والدراسة، كتدريس علوم الدين والفقه ومبادئ القراءة والكتابة، وهي ذات طابع ديني وثقافي يقيم فيها الشيخ الصوفي يؤدي فيها صلواته الخمس ويعتكف للعبادة والأوراد ويلتف حول الشيخ طلبة ومريدون، وقد كانت عبارة عن مجمعات من البيوت والمنازل المختلفة، ويمكن تقسيم الزوايا في الجزائر إلى قسمين: القسم الأول زوايا حرة لا تنتسب إلى ولي أو طريقة صوفية يدير شؤونها مجلس يتكون من الطلبة، أما النوع الثاني فهي تخضع في تسييرها للشيخ المؤسس أو خلفه، تتلمذ بهذه الزوايا غالبية علماء الجزائر في العهد العثماني أمثال: سعيد قدورة، أبو راس الناصري، وكانت تجلب إليها العديد من الطلبة، فزاوية سيدي تواتي يدرس بها نحو مائتي طالب وهي مركز لتخريج القضاة والعلماء لكامل البلاد، أما زاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي تميزت بمستوى تعليمي عالي درس بها 125 طالب او يدرس بها 25 مدرس والتي تأسست سنة 1623م على يد الشيخ أبو زيد عبد الرحمن يسعد اليلولي ببوزقان وكانت مدينة الجزائر وحدها تضم عددا كبيرا من الزوايا والأضرحة، فقد أحص بها 12زاوية، 32ضريحا.

أما مدينة قسنطينة فقد وجد بها 16 زاوية، كما اشتهرت ايضا تلمسان بزواياها التي وصلت إلى أكثر من 30 زاوية أشهرها زاوية عين الحوت، إضافة إلى عدة زوايا أخرى بالغرب الجزائري، وتعد منطقة تيزي وزو وبجاية من أغنى مناطق الجزائر بالزوايا، حيث قد تصل إلى 50 زاوية وأهمها التي لعبت دورا في ميدان التعليم ونشر الوعي بين السكان كزاوية راشد زاوية بني اعراب، حيث كان

يقصدها التلاميذ من مختلف النواحي. كما نلاحظ أن أول زاوية نالت حظها من الوقف هي زاوية القشاش والتي تأسست سنة 1615م، أما في بسكرة فكانت هناك 50 زاويا منها الزاوية المختارية التي تنسب إلى الشيخ المختاري بن خليفة بن أحمد بن عبد الله تأسست بأمر شيخها سنة 1635م، وحظيت الزاوية بعدد كبير من الطلبة حيث فاق المئات ولقد كان للزوايا نظام داخلي لطلابها، بحيث كان هناك نوعان من الطلاب المقيمين دون مقابل في أغلب الأحيان وتوفر لهم الطعام والمأوى والتعليم، أما غير المقيمين فلا تكفل لهم سوى التعليم وكان في الخنقة زاويتان الناصرية والرحمانية، فالناصرية منسوبة إلى محمد بن ناصر، وأما الزاوية الرحمانية مؤسسها هو الشيخ عبد الحفيظ بن محمد الخنقي، وكانت الزاوية الناصرية بجامعها الكبير ومدرستها نشأت على الناحية بالعلم والمعرفة طيلة قرنين أو يزيد.

أما فيما يخص زاوية الهامل فهي تعد من أهم مراكز الإشعاع الروحي والثقافي في ربوع الحضنة والتي تأسست سنة 1817م، حيث اعتبرت بعض الزوايا مدارس حقيقية، كان لها الفضل في بروز علماء في جميع الميادين، وهي تعتبر كنقطة انتقالية يتأهل الطلبة النجباء منها نحو الجامع الأزهر وجامع القرويين و الزيتونة، لهذا يقول محمد المأمون المصطفى القاسمي الحسني: (...إن رسالة الزوايا كانت تتضح لكل دارس نزيه...شاملة شمولية هذا الدين إنها رسالة حضارية ارتبط بها تاريخ الجزائر العلمي والثقافي ارتباطا وثيقا، فلم يقتصر دورها على التربية والتعليم، بل كانت وظائفها أشمل وأعمالها أعم وأوسع فهي معقل تربية وجهاد ومعهد علم وعمل وموطن تلاوة وذكر....).

وعليه، فقد انتشرت الزوايا التي احتضنت الطرق الصوفية في العهد العثماني بكثافة كبيرة، وأصبح الطلبة يتلقون العلوم الشرعية المختلفة فيها. وانتشرت

الزوايا أكثر في الأرياف ولعبت دوراً ايجابيا في المدن وانتشرت أكثر في بايلك الغرب الجزائري.

لقد انتشرت الزوايا في الجزائر شرقاً وغرباً وفي المدن والريف، ولا تجد منطقة تخلو من أية زاوية. وقد ساعدت السلطة العثمانية في انتشار الزوايا بالجزائر، ووفرت المناخ والبيئة والظروف على انتشارها، كما ساهمت الزوايا في استقرار نظام الحكم ودعمته بالجزائر. ومن العوامل التي ادت الى انتشار الزوايا خارج المدن انتشار المرابطين في الريف الجزائري البعيدين عن مراقبة السلطة السياسية، وسهولة السيطرة على اهل الريف بسبب بساطة تفكيرهم وارتباطهم بالدين الاسلامي وحبهم له. وارتباط اهل الريف بالاراضي الزراعية والرعي وعلاقة الزوايا بالاراضي الوقفية كمصدر للرزق ودعم استمرار عمل الزاوية من خلال تقديم اهل الريف جزء من انتاجهم للزوايا. وقد زاد انتشارها في الريف انتشار المساجد والمدارس المتخصصة للتعليم في المدن الكبرى.

وترجع بعض الدراسات أن بايلك الغرب الجزائري، اشتهر بتواجد الكثير من الزوايا لجوارها من المغرب الاقصى، الذي اشتهر بدوره ببروز الكثير من الطرق الصوفية والزوايا التي اثرت على المنطقة الغربية من الجزائر بسبب العلاقة القوية بين البلدين من خلال الاحتكاك الدائم لعلماء البلدين وطلبتهم، هذا الاحتكاك ادى الى انتشار الزوايا والطرق الصوفية في منطقة الغرب الجزائري، وهي أيضا عرفت احتلال اسباني لمدة طويلة استوجب على علماء المنطقة حمل لواء الجهاد ضده من خلال تربية اجيال على الجهاد وقادت الزوايا والطرق الصوفية ذلك، بحيث عرفت الزاوية بانها مؤسسة لزعماء الطرق الصوفية وطلابهم.

لقد ساهمت الزوايا في قضايا المجتمع الجزائري المسلم في مجال التكوين الديني والاجتماعي والتربوي، وقد أولت الزاوية التربية الدينية والتوجه القرآني الاهتمام الاكبر في نشاطها التقليدي. واصبحت تعمل على تكوين الافراد دينيا واجتماعيا. وقد غرست القيم الدينية داخل المجتمع الجزائري المسلم وعززت الروابط الاجتماعية بين سكان الجزائر، وتعليم اللغة العربية، واصبحت حصنا منيعا مستقبلا في وجه الاحتلال الاجنبي.

ج-الاقواق:

يعتبر الوقف من القيم الاصلية للحضارة الاسلامية، ويعبر عن ارادة الخير والتضامن عند الفرد المسلم، ويندرج ضمن الصدقات الجارية باجماع فقهاء المسلمين.

لقد عرف المجتمع الجزائري المسلم الوقف قبل حلول العثمانيين بالجزائر وتمركزهم فيها، وقد تركزت الاوقاف بالقرب من المدن والمناطق التي يدين سكانها بالولاء للزوايا والطرق الصوفية، واغلب الاوقاف تتقاسمها المؤسسات الدينية.

ويعتبر الوقف تعبيراً صادقاً عن ارادة الخير وتكريس روح التضامن والتكافل بين الافراد في اطار الجماعة التي يعيشون ضمنها، مما يجعل مؤسسة الوقف تنظيماً خيرياً يستمد وجوده من احكام شرعية يقوم باداء دوره في اطار صيغ تضامنية. وقد اصبح الوقف واقعا اجتماعيا ومظهرا ثقافيا بحيث اوجد نوع من الوحدة الثقافية لانه المورد الاساسي للمؤسسات التعليمية.

ان علاقة الوقف بالتعليم علاقة عضوية، حيث كان التعليم حراً من سيطرة الدولة والحكام العثمانيين، فكان سكان كل قرية ينظمون بطرقهم ووسائلهم الخاصة تعليم اطفالهم القرآن والحديث، وكانت المدارس والزوايا والمساجد تمول وتتغذى بالاوقاف مثل الاراضي الزراعية واملاك عقارية أخرى بحيث كانت اساس في تدعيم التعليم وحماية الطلبة والمتعلمين. وبهذا ارتبط الوقف بالحياة التعليمية للجزائريين من خلال اعتباره عنصراً فعالاً في استمرار المؤسسات التعليمية بتمويل وتمويل مراكز التعليم المختلفة.

ومن أهم المؤسسات الوقفية في الجزائر خلال الفترة العثمانية، مؤسسة الحرمين الشريفين التي كانت تمثل الوجه السياسي للجزائر في العالم الاسلامي، لان معظم عوائدها توجه الى فقراء مكة والمدينة والمحتاجين من سكان الجزائر. ثم تاتي اوقاف الجامع الكبير التي تعني بمساجد المالكية، فقد كان لها عدد كبير من الاحباس في مختلف مدن الجزائر. كما توجد اوقاف سبل الخيرات وهي مخصصة لاجل الانفاق على مساجد المذهب الحنفي.

ومما سبق تبرز لنا أهمية الوقف في خدمة العلم والعلماء، لذا فان مردود المؤسسات الوقفية ساعد على توظيف المعلمين والعناية بالمؤسسات الخاصة ودفع اجور المعلمين والاساتذة والطلاب بها.

بالتوفيق

